الكتب

ترجمة نفسية تحليلية

هوذا تاريخ انسان ...!

للأستاذ خليل هنداوى

وقلت للاستاذ النعيمى عقب وصوله الى لبنان : هل أعددت وراءك غربالا آخر ؟ فأجاب : ذاك غربال انطوى ، فتحت به طريق النور ، والآن أرانى سائراً الى المحجة التى فرضتها على الحياة ، أو فرضتها على الحياة . . . . فأعطانا « المراحل » وكتاب « جبران خليل جبران » (ن . م)

— ١ —

وجه جبران خليل جبران

وما إن صدر كتاب « جبران خليل جبران » حتى تناولته الأكف ، وتهافت عليه الناس . وما إن تلاه الناس حتى ضجوا به ، وتفرقوا فى شأنه شيعاً ، شأن العظيم لايعرف أحداً معه معتدلاً ! فمن ناقم على النعيمى لأنه فضح أسرار صديق كان يحجب عليه أن يحفظ حرمته بعد الموت ، ومن محبذ لأن الأدب لايعرف تستراً ! والحقيقة لاتعرف مواربة ؛ وهكذا ذهب الناس فى شأن الكتاب مذاهب مختلفة ، وللناس مذاهبهم

أراد البعض أن يدرسه جملة ، فخرج من درسه بما لايرضاه ، وشاء البعض أن يذهب فى نقده ما يفرضه الناقدون على غيرهم من أساليب جافة ، ومقاييس محدودة ؛ ومتى كان الأدب — ابن الحياة — يقبل الحدود والقيود ؟

الكتاب عظيم بنفسه ، متفرد بروحه وبطريقته وبنقده ، صارم ما شاءت الصرامة ، وعادل ما شاء العدل . ولن نتبين هذه النقطة التى تمازج فيها العدل والصرامة فى مواطن كثيرة ، إلا إذا اطلعنا على القياس الذى أعلن عنه نعيمة فى مطلع الكتاب ، وهو مقياسه الخاص فى الأدب والفن والحياة ، فاذا فهمنا هذا المقياس فهمنا الكتاب ، وإذا أعرضنا عن هذا المقياس ضاع عنا جوهر الكتاب ، والغاية التى أُلف من أجلها

لا يريد نعيمة أن يعرض فى كتابه تاريخاً له تفاصيله وله آفاقه ؛ والبشرية — فى اعتقاده — لم تكتب حتى الآن تاريخ إنسان ولا تاريخ شىء على الاطلاق ، وإنما أراد أن يجرى فى درسه لحياة جبران مع عقيدته الشائعة فى نفسه « إن الفن مهما تسامى فى

الأوزاعى

(بقية المنشور على صفحة ٤٢٠)

وفاته : كانت وفاة هذا الفقيه الكبير فى سنة ١٥٧ هـ ، وقد ذكرها أبو الفداء فى حوادث تلك السنة ، وتوفى وهو فى الحمام فى بيروت ، وقبره على ما ذكره أبو الفدا فى قرية على باب بيروت يقال لها خنتوس ، وأهل القرية لا يعرفونه ، بل يقولون هاهنا رجل صالح

والسبب فى وفاته على ما جاء فى ابن خلكان ، أنه دخل الحمام ، واتفق أن صاحب الحمام كان مشغولاً فأقفل عليه الباب ومضى ، فلما عاد فتح الباب فوجده قد فارق الحياة . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان إمام أهل الشام غير مدافع

هذا وإن ما ذهبت إليه فى هذه الكلمة ليس إلا محاولة بسيطة أرجو إن لم أوفق فى نتائجها ، أن أكون قد وفقت فى الطريق الذى سلكته . فالبحث فى اعتقادى ناقص مبتسر ، لأنى لم أطلع على كل ما كتب عن الأوزاعى فقد تكون هناك كتب كثيرة ، لم تنشر أو لم أوفق الى العثور عليها . وعسى أن تحفز هذه الكلمة بعض الباحثين من الفضلاء فيوفى هذه الترجمة ويحلل هذا المذهب إحياء لتراثنا العلمى الذى ذهبت به الأحداث والقرون

القدس

عبد القادر على المجاوى
بكلوريوس فى العلوم

نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الأهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التي لا تحدّ — من الانسان في الله الى الله في الانسان — والأدب مهما جعل لامعنى له إلا على قدر مايكشف معنى الحياة الذى هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء »

درس النعيمى جبران بهذا المقياس ، ويدرس الأدب كله فى جبران ، والأدب عنده هو مثل أعلى إذا ربط الانسان به حياته اللحمية والروحية ، وهذا مقياس جاد صارم ، لايجعل من الأدب ملهاة ، وإنما ينزله منزلة الحياة . . . وأنت واقع فى الكتاب على فصول متنوعة ، هى بجملتها حياة جبران ، وهى بمجموعها تاريخ ذلك الصراع المادى لتُذعن له المادة ، وذلك الصراع الروحى المستمر لينقّى روحه من أدرانها وشهواتها الأرضية . وفسادها أن صاحبهما يحاول أن يفوز فيهما فى وقت واحد

فى الكتاب تاريخ جبران الأنسان ، وجبران الفنان ، وجبران الشاعر ؛ تاريخ هؤلاء الأشخاص المفترقين تحت لواء عقل واحد . يمشى كل منهم فى طريق ؛ ولا يدرى أين سلك رفيقه . وعقل جبران يظن أن نفسه هادئة مطمئنة — ونفسه منشقة على نفسها . جبران الأنسان لا يلتقى وجبران الشاعر الفنان إلا بالخيال ؛ والخيال وحده لايكفى إذا لم يقو على الارادة ، ويجنحها بجناحيه ويطير بها الى حيث شاء

رسم النعيمى فى كتابه لجبران وجوهاً كثيرة : منها وجه جبران الفنان ، ووجه جبران الانسان ، ووجه جبران الطافح تمرداً ، ووجه جبران الهادئ الذى جعدته السنون وارتسمت فى غضونه الحكمة . أما جبران الفنان فأنت واجده فى كل أدوار حياته التى أثرت فيه وأثر فيها ، ومهما كان من تباين بين شعره وفنه فالرجل استطاع أن يكون . . . برغم المصاعب التى اعترضته وبفضل المصادفات التى خلقت ذلك وفرضت ذلك . جبران الشاعر كغيره من الناس تسكره الشهرة وتستهويه لمعانها ، وهو بعد جهاد عنيف استطاع أن يبلغ بخياله تلك القمة التى دعاها الناقد قمة « المصطفى [1] » حيث أشرف جبران على الوجود ، ونظر اليه بخياله الخالص من تأثير « نيتشه » وغيره ، ووقف على معنى « الازدواج » فيه . ولكن جبران الانسان لم يكن برغم سمو خياله — عالياً سامياً كما تصوره لنا ريشته وبراعته ، فهو نسر نشيط كبلته قيود الأرض وشهوات المادة ، لم يغنه الفن شيئاً ، بل زاد عذابه عذاباً ، لأنه كان يكشف لعينيه قباب ذلك الوجود الذهبى ويمنع قدميه الملوثتين من الدخول . . . جبران الانسان تغلى فى صدره شهوات ابن المادة ، وهو أنانى ونصير حب يود أن يكون فيه محبوبه عبداً ؛ وهو طالب شهرة لم يستطع فنه أن يحرره من شهرة الناس الذين يكرههم : لا يخرج من — سومعته [1] إلا جبران الفنان ، أما جبران الانسان فهو راسٍ على صدره لا يفر منه الا اليه . . .

هذا الاختلاف بين شخصين مندمجين فى شخص واحد هو موضوع الكتاب

يتساهل النعيمى مع جبران الفنان وحق له أن يتساهل أمام فنه المرن ونزعته الشخصية مهما مازج فنه من عوامل غريبة عن فنه ، أما جبران الانسان فلم يرحم ضعفه ولم يستره بستار الرحمة ، لأنه يرى أن رحمته تقوض معتقده الأدبى وتهدم نظرته الفلسفية ، وإنما يعتقد أن العبقرى الحقيق لا يجعل من نفسه شخصين مختلفين ، ويرى أن الفن الصحيح هو مانق النفس من أدرانها وأسوائها ، فهل نق جبران الفنان جبران الانسان ؟

عمل جبران الفنان على تطهير جبران الانسان ، ورفعه من الهوة إلى القمة . ولكن قدمى جبران الانسان كانتا من قصب ، لا يكاد صاحبهما ينهض عليهما ويمشى قليلاً حتى تتحطما ويلبث مكانه . . . أليس فى فرار ميشلين [2] ابنة التراب ! من وجه جبران الفنان ابن السماء ! أكبر خزى لجبران ؟ أليس فى تألم الفتاة التى جاءت لتحيي « صاحب النبي » اعتقاداً منها أنه سيكون أسمى من النبي الذى خلقه أكبر هزيمة لجبران الفنان ؟ وهكذا ظل جبران فى نزاع مع نفسه حتى قضى ولم يقض لبانته

قد يكون فى هذا التصريح بعض ما يجرح ، ولكن الحقيقة . . . الحقيقة الانسانية لا تعرف المراعاة ، ولوكان جبران فناناً عادياً لما قاسه النعيمى بهذا المقياس الدقيق الذى لا يطبق

(١) كتاب وضعه جبران بالانجليزية

(١) إشارة إلى صومعة جبران
(٢) محبوبة الشاعر

إلا على العباقرة المختارين والنوابغ الموهوبين

ألم يكن « فيخت[1] » يغلب فيه الانسان الأخلاق على الانسان الفيلسوف ؟ والانسان الاخلاق يغلب عليه الانسان المجرد ؛ وهو كلما تجرد ونزع عنه هذه الأقماط بدا أدنى إلى حقيقة السمو والكمال العارى كما كان يرتفع فنه معه متناسباً مع ارتفاع نفسه . وهذا هو المثل الأعلى الذى يطلب النعيمى إلى كل فنان أن يسمو إليه بعقله وجسده وفنه ؛ لا أن يقسم نفسه أقساماً ، يضع كل قسم منه حيث يريد

« ولا يكفى الانسان أن يبصر النور ليكون مستنيراً ، بل عليه أن يجعل ذلك النور هاديه الأوحد فى حياته ، وإن فى ذلك وحده سراً لانعتاق الأبدى من جحيم المتناقضات ، أما السبيل إلى ذلك فهى نبذ كل ما يحجب عنا النور من شهوات أرضية ، ونزعات زمنية وشعور بالفردية التى لا تأتلف وروح الكلية الشاملة[2] » وطبقاً لهذا الاعتقاد يبين النعيمى جانباً من حياة جبران ـ لا كل جوانبه ـ التى حالت دونه ودون الانعتاق ، أو التكران المؤدى إلى الانعتاق

وهكذا تطلع فى هذا القسم على حياة مستقلة بذاتها عن الانسانية ، ومتصلة بذاتها مع الانسانية ؛ عارية كاسية ، وإنما هى الحياة كلها بلحمها ودمها وروحها الذى لا يدرك

* * *

— ٢ —

جبران الثائر وجبران الرهبانى

لا يقف الناقد على درسه على جبران الفنان وجبران الأنسان ، وإنما هو يعالج — من ناحية ثانية — المؤثرات التى أثرت فى جبران ، والعوامل المقدرة وغير المقدرة ، والمتصلة — كما يقول الناقد — بمكوك الحائك الأكبر وغير المتصلة . فهو يولد مع جبران ويدرج معه من سياحة إلى سياحة ، ومن فشل إلى رجاء ومن رجاء الى فشل . طوراً ينطق جبران عما نطق ، وتارة ينطق عن جبران عما لم ينطق . وفى هذه المنطقة يلتقى النعيمى الناقد بجبران الفنان المجرد ، لا النعيمى الحامل المثل الأعلى لجبران الضائع وراء نوازعه الأرضية . ولا يمكننا أن نقف على قيمة جبران الأدبية إلا إذا تعمقنا فى أحناء حياته . فجبران — فى كتاباته — ذو وجوه متعددة ، منها وجه المحب المنهزم ، ووجه المتمرد الثائر ، وجه الهادئ الساكن ، ووجه المتصوف السامى ، وصاحب هذه الوجوه رجل واحد هو جبران . والنعيمى يستعرض هذه الوجوه وجهاً وجهاً دارساً عواملها محللاً ألوانها

« يتبع » خليل هنداوى

(١) فيلسوف ألمانى وردت ترجمته . (تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا)

(٢) من رسالة لنعيمة إلى الكاتب